الحرية الشخصية

سيف له حدّان

بقلم الأستاذ محمد الهياوى

ماذا تطوى المدنية بين أحشائها فى ليل الشتاء والصيف؟ وما الذى تقذفه أحشاؤها الى سعة الفضاء كلما اكتظت بما تطويه ؟

القاهرة مثلا ، تبدو فى الليل كله ساهرة ولهانة ، تضطرب فى أحشائها أشباح من بنى آدم لا تزال تلتمس اللذة الخادعة بين مضاجع التعس وأحضان الشقاء ، على أنها تبدو أيضا فى ليل الشتاء والصيف مستكينة هادئة ، وهى على الحالين توزع السكينة والاضطراب بين أرجائها المختلفة فتعطى كل ناحية حظها على قسمة ظاهرة الجور .

هؤلاء الذين يستقبلون وجه الصباح كأنهم فلول معركة دامية ، والآخرون الذين يتكسرون على جوانب الطريق كأنهم من هذه الفلول حطام لا حساب له فى غنيمة ولا خسران ، هؤلاء جميعا لماذا تأخذهم شياطين الليل الى أودية الجحيم ، فى ملعب القمار ، فى ركن البار ، فى ملهى الفضيحة والعار ، وهى فى كل ذلك تأخذهم من السلامة إلى الدمار ، أى من الدار الى النار ؟..

* * *

طلاب العلم فى شبابهم المزدهر ، ما شأنهم بقصف الليل وعصفه ؟ لماذا يطيب لهم أن يقصموا ظهر الليل فى دور السيميات ، ويفرقوا أوصاله فى مهاوى التلف من مسارح الردى ومذابح الأخلاق ؟ سلهم لماذا يطيب لهم أن يفعلوا ذلك وليس معه من الخير إلا أن توردهم تهاويل الفتنة موارد العدوى ، وتنفث فيهم أفانين الخيال المستهتر روح الشر ، فاذا انصرفوا آخر الليل الى شىء آخر فليسوا ينصرفون الى سوى الأخلاق يتعثرون فى طريقهم بجثثها المتناثرة ، والرجولة يسمعون بين أيديهم فرقعة عظامها المطحونة ، وكتب الدرس والتحصيل يجدونها تحت أبصارهم مثلات من الخراب يغطيها التراب ، وإلى نور العلم يحسونه فى صدورهم قطعا من الظلام ، وأطباقا من الضلال ، ثم اذا أظلهم يوم الامتحان لم يجدوا فوزا ينتظرهم غير هذا الفوز المألوف : خيبة الرجاء وضيعة الأمل ، وقد ينتبهون بعد ذلك من غفلتهم

ولكنه انتباه الموتى لا رجاء لهم فى الحياة ، و " الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ". و يومئذ — لا غير — يستطيعون أن يدركوا أنهم كانوا يهدرون من دم الحياة بحرا دفاقا كلما كانوا يرتشفون فى مباكرة اللذات قطرة من كأس ، كما يستطيعون أن يفهموا أنهم كانوا يخطون بكل واقعة من وقائع الليل قبرا للسلامة ، ومصرعا للحياة ، كلما كانوا يسترخصون كل عظيم من الأشياء فى سبيل اللذة الخسيسة الذاهبة .

* * *

وبنات حواء ، أولئك اللاتى هن سيدات كبيرات ، وفتيات ناهدات ، وصبايا صغيرات ، لا والله : إن خيرا منهن بنات آوى وأبناء عرس ! ... أولئك ما شأنهن يسهرن الليل ويجلبن الويل ! : أفى المراقص الحتاكة تطلب النقية المبرأة ترويح النفس من عناء الواجب إن كانت تعرف لها واجبا تؤديه ؟ : أفى الكباريهات الموبقة تلتمس الشريفة المستعصمة تسلية القلب من الهم الطارئ إن كانت تفهم بماذا يأتى الهم و بماذا يذهب ؟ وليس أقل من المراقص والكباريهات غيرها من كل بؤرة لا تعرف شرابا يروى عطشها غير دم الفضيلة ، ولا تدرى غذاء يشبع جوعها غير لحم الشرف وعظمه ! :

* * *

والرجال الرجال ... هؤلاء الذين امتحنهم الزمن بالمعجزة الكبرى من معجزاته حين أحال دماءهم بيضاء باردة ، فأصبحوا لا يجرى فى عروقهم إلا هذا الدم البارد الأبيض : حتى لو أراد العلم الحديث أن يقيس رجولتهم بمقياس من التحليل والفحص لوجد النسبة فى كرياتهم البيضاء صاعدة مع الزيادة الى ما فوق مئات الألوف ، وما عسى أن يكون لمثل هذا الفحص والتحليل من نتيجة إلا أن الدم فى بعض الرجال أصبح صديدا وقيحا ؟ ولكنهم أبوا مع ذلك إلا أن يجعلوا للزمن معجزة صادقة ، فقدوا الحياء واستبقوا لأنفسهم صور الأحياء .

فى أية منزلة من منازل الرجال يستطيع أن يضع نفسه هـذا الرجل الذى يأخذ على يديه زوجته وفتاته وطفلته وطفله ثم يذهب فيغرقهم فى مستنقع تبدو سمكاته للصائدين عاريات فوق سطح المـاء ؟ ... أرجل هو من بنى الانسان أم هو رجل من خشب ! ...

بل بأى ميزان من موازين الشرف يستطيع أن يقوم شرفه هذا الرجل الذى يسوق أسرته بين يديه ثم يمضى بها لترى الفتاة رقص البطن وكيف يكون ! ... ولتبصر الطفلة ترعيش الصدر وكيف يحصل ! ... ولتملأ الجميع آذانهم وأعينهم من قرع الكؤوس ، وفتك الرذيلة بالنفوس ! ... أهذا آدمى من الآدميين ، أم هذا تمثال إنسان من تبن وطين ؟ .

* * *

وفى ليل المدينة دون ذلك مغارات يعكف فيها الفساد القاتك على صرعاه عكوف الطير على أعشاشها ، وهناك مصائد لا تطلق من يقع فيها قبل أن يهلك ، ولا يزال أبناء الطبقة الدنيا هم الضحايا التى تسترضى بها هذه المغارات آلهة الشر ، فهل من دواء يقضى على الداء ، هل من شجاعة تنقذ الفريسة؟ هل من رحمة يتبعها تفكير ، وتفكير تلحقه عزيمة العمل الصادق؟

إنكم تستطيعون أن تجدوا بين أنواع الجهل نوعا واجبا محمودا ، فاذا شئتم فاعلموا أنه هو الجهل المنقذ من الضلال !...ومثل هذا الجهل يجب أن يتلقنه الشباب من طلاب العلم ومن سواهم ، ولعل أحدا لا ينكر أن سلامتهم وسلامة الأمة كلها تأبى الا أن يجهلوا كل طريق تؤدى الى بؤرات الفساد ، ومن العجائب أن يكون مع هذا الجهل الواجب المحمود مفتاح باب العلم الحق والنجاح الصحيح .

ثم إنكم تستطيعون أن تهتدوا بين أنواع العمى الى نوع واجب محبوب ، فاذا أردتم فاعلموا أنه عمى يهدى الى الرشد ، ويدل على طريق الفضيلة !...ومثل هذا العمى يجب أن يملأ به بعض الآباء والأزواج عيونهم ، وما دام صلاح البيوت وسلامة الأعراض واستنقاذ الكيان الاجتماعى من التهدم والتخريب ، مادام كل ذلك لا يكون الا أن يعمى هؤلاء وأمثالهم عن أبواب الجحيم ومسالكه ، فانظروا كيف تكتحل أبصارهم بهذا العمى أو كيف تكتحل به بصائرهم على الأقل .

فان يكن الحق شيئا آخر فاخبرونا إذن عن الحق ماذا يكون !

هل يستباح للأطفال الدارجين فى طريق المستقبل ، المدخرين لأعباء الغد المأمول يوم يصبحون رجالا ، أن يشتعل فى نفوسهم منذ الآن حريق الأخلاق ، وأن تصنع من أخلاقهم منذ الآن أكفان الاستقامة ؟

هل يحل للآباء والأزواج فى البيت وفى غير البيت أن يهيئوا للأمة فى مكان الجنود من حماتها ، والأبطال من قادتها ، والقادرات على صنع الحماة والقادة من أمهات أبنائها ، أشباحا ليست لها أرواح . أو أرواحا من الشر فى أقفاص من العظام ؟

ولست أقترح للعلاج شيئا بعينه ، ولكنى أسأل : هل يصح أن تبقى للحرية الشخصية كرامة محفوظة إذا أصبحت من الإطلاق والإباحة كالريح العاصفة والبلاء العميم ؟ وهل يمكن أن يفوتنا أن الحرية الشخصية بين طرفى الإفراط والتفريط سيف ذو حدين !

إن لهذه الحرية قيودا تمنع أذاها أن يصيب المنافع المادية، فلكل إنسان حريته فى أن يوقد النار لينضج طعامه، ولكن هل معنى ذلك أنه حر فى أن يوقد النار ليحرق بها البيوت والزروع أو ليشوى فوق جمرتها لحم انسان آخر؟... لا ريب أنها إذن تصبح حرية مجرمة، ومثلها حريتك فى أن تستق من ماء البحر، فهذه الحرية حقك المطلق، ولكن ليس من حقك المطلق ولا المقيد أن تضع السم فى ماء البحر لتفسده على الناس .

و بعد ذلك فأين تقع الأخلاق والفضائل من حاجة الحياة وصلاح أمرها ؟

هل تقع أسفل من المنافع المادية أم أعلى منها ؟ أحسب أنها لا تقع فى رأى المصلحين ولا عند القادرين على حمايتها فيما دون المكان الأعلى ، إذن فلماذا لا تحمل الحرية الشخصية على قيود تمنع أصحابها أن يشعلوا فى مستقبل الأخلاق — أى فى مستقبل الأمة — نار الحريق؟

هنا قانون يعطينا من بعض جوانبه قدرا من السلطة نقيم به شبه حماية للآداب، وفى قيام هذا الجانب واستمراره اعتراف بأن من حق الآداب العامة أن تحمى وتصان ، وقد أصبحنا فى حال لم يعد شبه الحماية معها كافيا ولا مجديا، إما عن نقص فى هذا الجانب من القانون، و إما عن إغضاء وتفريط ، وفى مثل هذه الحال الى أى شىء يلجأ المصلحون ؟ يلجأون الى التشريع يسدون به ما فى القانون من جوانب النقص ، أو يصرفون الإغضاء والتفريط الى ناحية الجد والتنفيذ الحازم .

إن البلاء داهم والخطر قريب ، فافعلوا ماتكتب لكم به حسنة العاملين، فإن لم يتصادف موطن العلة جوزيتم بالثناء على حسن النية وقصد الخير .

محمد المهياوى

قال اعرابى حكيم :

— أقبح أعمال المقتدرين الانتقام، وما استنبط الصواب بمثل المشورة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر .

— اجتنب التفريط والافراط ؛ تستغن عن بقراط .

— من علم من نفسه الكرم ربأ بها عن مواقف اللؤم .

— الشباب من الموت خطوة أو ما فوقها ، والمشيب من الموت خطوة أو مادونها .